بني أمية غصبوا أهل بيت النبي حقهم سهلت إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بني أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم، ولهذا كان من الوصايا التي بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية: (إن قدرت ألا تُبقي بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهي وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة.

وفوق ما تقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالي للعرب يتحكم العرب في رقابهم وفي أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم، فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ. وتأثير هذا السبب في الخاصة أكثر منه في العامة: فهذا النزاع كان في الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بني أمية وبني العباس وحدهم.

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذي أحيته العصبية الجاهلية، وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين. وكان تأثيره قد ضعف إذ ذاك. على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إلا إذا اجتمعت الأمة وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم في إيقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم.

استعمل في الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً، فقد كان من الوصايا التي ألقيت إلى أبي مسلم: (واقتل من شككت فيه). ولا يخفى أن حزم أبي مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة في قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه. وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبي مسلم أيضاً. وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبراً فكان ستمائة ألف.

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم وفي بدء إسلامهم وفي فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة، فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن علي بن طباطبا في كتابه المعروف بالفخري في الآداب السلطانية قال: اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة.

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بني العباس:

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على

شاطىء بحر الظلمات وطولها على ما ذكره أبو عبد اللّه محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري في كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (٢٦٠٠ فرسخ) وتمتد عرضاً من شاطىء بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهي منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات: وها نحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات:

١ ـ جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة:

الأولى: الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها.

الثانية: اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء.

الثالثة: عمان وقصبتها صحار على شاطىء بحر الهند.

الرابعة: هجر وقصبتها الأحساء.

ويتبع اليمن من النواحي: الأحقاف وبها من المدن حضرموت، ومهرة وبها من المدن الشحر. ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر. ويتبع الحجاز وادي القرى وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت اللّه الحرام والكعبة المقدسة التي جعلها اللّه قياماً للناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم ـ وبها طيبة وهي مهاجر رسول اللّه ﷺ ومبعث النور الإسلامي.

أمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربي إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن لغتهم لغة عربية، ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنّة فيما عداهما.

وبشمال هذا القسم بادية العرب وهي بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفيفة الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء وفيها اثنا عشر طريقاً توصل إلى مكة منها تسع طولاً يؤدين إلى مكة وثلاث عرضاً يؤدين إلى الشام وبها طريق آخر لوادي القرى يؤدي إليها من البصرة ثم إلى مصر وهذه الطرق هي:

١ ـ طريق مصر.
٢ ـ طريق الرمة.
٣ ـ طريق الشراة.
٤ ـ طريق تبوك.
٥ ـ طريق وبير.

٦ ـ طريق بطن السر.
٧ ـ طريق الرحبة.
٨ ـ طريق هيت.
٩ ـ طريق الكوفة.
١٠ ـ طريق القادسية.
١١ ـ طريق واسط.
١٢ ـ طريق وادي القرى.
١٣ ـ طريق البصرة.

وقد أجاد وصف هذه الطرق البشاري في كتابه أحسن التقاسيم ص (٢٤٩) وما بعدها فراجعه.

٢ ـ إقليم العراق وبه ست كور:

الأولى: الكوفة وقصبتها الكوفة، وهي من المدن الإسلامية، وبها من المدن: القادسية وعين التمر.

الثانية: البصرة وقصبتها البصرة، وهي من المدن الإسلامية، وبها من المدن: الأبلة وعبادان.

الثالثة: واسط وقصبتها واسط، وهي من المدن الإسلامية، وبها من المدن: فم الصلح.

الرابعة: المدائن وقصبتها المدائن وهي مدينة كسروية، وبها النهروان والدسكرة وجلولاء.

الخامسة: حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان.

السادسة: سامراء وقصبتها سامراء، وبها من المدن الكرخ وعكبرا والأنبار وهيت وتكريت.

وهذا الإقليم كان يسمى في القديم إقليم بابل، وهكذا كان اسمه في التقويم الأول عهد العباسيين، ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثراها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا.

وأمة هذا الإقليم نبطية دخل عليها العرب في بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم، ولذلك صارت لغة هذا الإقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط. وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأي إقليم آخر ما عدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الأقاليم الثلاثة قبل الإسلام، وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم. فلما

جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالإقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

ومساحة العراق طولاً من البحر إلى السن (١٢٥ فرسخاً) وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان (٨٠ فرسخاً) فإذا كسرته كان (١٠٠٠٠ فرسخ).

٣ ـ **إقليم الجزيرة**: جزيرة أقور أو أثور أو أشور، وهي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور:

الأولى: ديار ربيعة وقصبتها الموصل، ومن مدنها: الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين ونمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر.

الثانية: ديار مضر وقصبتها الرقة، وبها من المدن: باجروان وحصن مسلمة وحران والرها.

الثالثة: ديار بكر وقصبتها آمد، وبها من المدن: ميافارقين وحصن كيفا.

وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الإقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كورة بأسمائهم، ولذلك يعتبر إقليماً عربياً محضاً، لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم. وينتهي هذا الإقليم إلى حدود الروم وأرمينية.

٤ ـ **إقليم الشام وبه ست كور**:

الأولى: قنسرين وقصبتها حلب، ومن مدنها أنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش وإسكندرونة ومعرة النعمان.

الثانية: حمص وقصبتها حمص، ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية وأنطرسوس.

الثالثة: دمشق وقصبتها دمشق، ومن مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس.

الرابعة: الأردن وقصبتها طبرية، ومن مدنها صور وعكا وبيسان وأذرعات.

الخامسة: فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان.

السادسة: الشراة وقصبتها صفد ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح. وهذا الإقليم دخله العرب قبل الإسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الأمم القديمة.

ولما جاء الإسلام كان مهداً عظيماً من مهاد الحضارة العربية الإسلامية ولغة أهله عربية.

وحدود هذا الإقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التي على حدوده وحدود الجزيرة

يقال لها الثغور، وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الإسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان.

وبهذا الإقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكاً على بني إسرائيل، واحتفل في بنائه كثيراً ويعظمه جميع الأديان من موسوي وعيسوي وإسلامي.

٥ ـ إقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم:

الأولى: الجفار وقصبتها الفرما، وبها من المدن البقارة والواردة والعريش.

الثانية: الحوف وقصبتها بلبيس، وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما.

الثالثة: الريف وقصبتها العباسية، وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة.

الرابعة: إسكندرية وقصبتها إسكندرية، وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام.

الخامسة: مقدونيا وقصبتها الفسطاط، ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس.

السادسة: الصعيد وقصبتها أسوان، وبه من المدن قوص وإخميم والبلينا والفيوم وغيرها.

السابعة: الواحات.

وأمة هذا الإقليم كانت في القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الأمم التي ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم، وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها. ولما جاء الإسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فأقاموا في مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس في عهد الدولة الأموية، وأقامت بالحوف (الشرقية)، ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربي والدين الإسلامي وذلك بعد تملك الدولة العباسية.

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً لا يزالون على دينهم.

٦ ـ إقليم المغرب وهو ثماني كور:

الأولى: برقة وقصبتها برقة، وبها من المدن رمادة وطرابلس.

الثانية: إفريقية وقصبتها القيروان، وبها من المدن أسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بني زغناية ـ ومنستير.

الثالثة: تاهرت وقصبتها تاهرت، وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرهما.

الرابعة: سجلماسة وقصبتها سجلماسة، وبها من المدن درعة وأمصلى وتازروت.

الخامسة: فاس وقصبتها فاس، وتسمى هذه الكورة السوس الأدنى. وأما فاس فمحدثة بعد عهد العباسيين. ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهوارة وسلا.

السادسة: السوس الأقصى وقصبتها طرفانة، ومن مدنها أغمات وماسة وغيرهما.

السابعة: الأندلس وقصبتها قرطبة، وكانت لعهد بني أمية تتبع أمير إفريقية وعليها والٍ من قبله. وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الإسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر، إلا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربي بها إلا بعد ذلك في منتصف القرن الخامس، فأمة هذا الإقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربري.

٧] ـ **إقليم المشرق وهو إقليم ذو جانبين**: الأول في الشرق وهو ما كان شرقي جيحون أو أموداريا، ويسمى بما وراء النهر أو هيطل، والثاني في الغرب وهو ما كان غربي جيحون ويسمى خراسان.

أ ـ ما وراء النهر. قال البشاري: هذا الجانب أخصب بلاد اللّه تعالى وأكثرها خيراً وفقهاً وعمارة ورغبة في العلم واستقامة في الدين وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب في الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم.

وبهذا القسم ست كور:

الأولى: فرغانة وقصبتها أخسيكت، ومن مدنها: نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها.

الثانية: أسبيجاب وقصبتها أسبيجاب، ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها.

الثالثة: الشاش وقصبتها بنكث، ومن مدنها نكث وغيرها.

الرابعة: أشرو سنة وقصبتها بنجكث.

الخامسة: الصغد وقصبتها سمرقند وهي مصر الإقليم.

السادسة: بخارى وقصبتها بخارى، ومن مدنها بيكند.

وهذا الإقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة، ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن. فالكور هي الختل وقصبتها هلبك. ثم قواديان ومدينتها نير. ثم خوارزم وهي على حافتي جيحون، قصبتها العظمى شرقي النهر وهي كاث، ولها قصبة أخرى غربية وهي الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زم وفربر وآمل.

ب ـ خراسان وبها تسع كور:

الأولى: بلخ قصبتها بلخ، وبها ناحية طخارستان، ومن مدنها ولوالج والطالقان.

الثانية: غزنين وقصبتها غزنين، وبها من المدن كابل.

الثالثة: بست وقصبتها بست. وبعض الناس يجمع غزنين إلى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان.

الرابعة: سجستان وقصبتها زرتج.

الخامسة: هراة وقصبتها هراة، ومن مدنها باذغيس.

السادسة: جوزجانان وقصبتها اليهودية.

السابعة: مرو الشاهجان وهي القصبة، وبها ناحية مرو الروز.

الثامنة: نيسابور والقصبة إيرانشهر، وبها من المدن بيهق وطوس ونسا وأبيورد.

التاسعة: قهستان وقصبتها قاين.

وهذا الإقليم من أعمر الأقاليم الإسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم. أما أهل ما وراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الإسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين. وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا في عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء النهر في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي العامل من قبل الحجاج. ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم وما يأتي بعد من الأقاليم الفارسية، ولكن الدين الإسلامي شملهم فصار منهم أمة إسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الديني ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء في العلوم كافة.

قال البشاري في أحسن التقاسيم: وألسنتهم مختلفة. أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج، وأهل طوس ونسا أحسن لساناً، وفي كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم يجهرون فيه. ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملاً وطولاً ومداً في أواخر الكلم. ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح. ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثاً بالقوة إلى آخر ما قال.

٨ ـ إقليم الديلم به خمس كور:

الأولى: قومس وقصبتها الدامغان، ومن مدنها سمنان وبسطام.

الثانية: جرجان وقصبتها شهرستان، ومن مدنها أستراباذ وآبسكون.

الثالثة: طبريستان وقصبتها آمل، ومن مدنها سالوس وسارية.

الرابعة: الديلمان وقصبتها بروان.

الخامسة: الخزر وقصبتها أتل، ومن مدنها بلغار وسمندر. وبهذه الكورة نهر أتل، وهذا الإقليم لم يفش الإسلام به إلا في عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية.

٩ ـ إقليم الرحاب وهو ثلاث كور:

الأولى: أران وقصبتها برذعة، ومن مدنها تفليس وشروان وباب الأبواب وملازكرد.

الثانية: أرمينية وقصبتها أردبيل، ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا.

الثالثة: أذربيجان وقصبتها أردبيل، ومن مدنها تبريز.

وهذا الإقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم ويخترقه نهر الكرد وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الإسلام بهذه البلاد إلا في عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة.

١٠ ـ إقليم الجبال وبه ثلاث كور:

الأولى: الري وقصبتها الري، وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر.

الثانية: همذان وهي القصبة ومصر الإقليم.

الثالثة: أصفهان وقصبتها اليهودية.

١١ ـ إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهي:

الأولى: السوس وهي تتاخم العراق والجبال.

الثانية: جنديسابور وهي القصبة وكانت مصر الإقليم.

الثالثة: تستر وهي القصبة وليس بالإقليم أجل منها.

الرابعة: عسكر مكرم وهي القصبة، وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء.

الخامسة: الأهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى.

السادسة: الدورق كورة تتاخم العراق، من مدنها آزر وأجم وغيرهما وقصبتها الدورق.

السابعة: رامهرمز كورة تتاخم فارس وهي القصبة.

ولهذا الإقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزي.

١٢ ـ إقليم فارس وبه ست كور:

الأولى: أرجان وهي القصبة.

الثانية: أردشيرخرة وقصبتها سيراف، وهي ممتدة على البحر.

الثالثة: درايجرد وهي القصبة، وكانت في القديم مصر الإقليم.

الرابعة: شيراز قصبتها على اسمها، وهي مصر الإقليم، وبها من المدن البيضاء وفسا.

الخامسة: سابور وقصبتها شهرستان، ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز.

السادسة: أصطخر وهي أوسع الكور وقصبتها على اسمها.

وبهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها.

١٣ ـ إقليم كرمان وبه خمس كور:

الأولى: بردسير وقصبتها على اسمها، ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند.

الثانية: نرماسير وهي القصبة.

الثالثة: السيرجان وقصبتها على اسمها. وهي مصر الإقليم.

الرابعة: بم وهي تتاخم فارس.

الخامسة: جيرفت وهي على البحر.

١٤ ـ إقليم السند وبه خمس كور:

الأولى: مكران وقصبتها بنجبور.

الثانية: طوران وقصبتها قصدار.

الثالثة: السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل.

الرابعة: ويهند والقصبة باسمها.

الخامسة: قنوج وهي القصبة.

وبهذا الإقليم نهر مهران وهو يشبه النيل في الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح.

فهذه أربعة عشر إقليماً منها ستة عربية وثمانية أعجمية، والمراد بكونها عربية، تغلب اللسان العربي على أهلها وإلا فأصل أقليم العرب هو جزيرتهم فحسب.

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منها جميعها الخراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقي عن مصروفها وذلك شيء عظيم.

هذا هو الملك الطويل العريض الذي ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان. وليس

عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم التي بيّناها بل كان بعض الأقاليم فيه الواليان والثلاثة وبعضها قد يضم إلى إقليم آخر حسب الأحوال.

ففي بعض أيام بني أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوالٍ واحد كما كان الحجاج بن يوسف، فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون، وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التي تحت يده. وفي بعض الأحيان كانت تضم إفريقية كلها إلى والي مصر ويرسل من قبله والياً على إفريقية.

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوالٍ واحد بل كان للحجاز والٍ ولليمن والٍ. أما اليمامة وعمان فربما أضيفتا إلى والي العراق، كما كان الحجاج بن يوسف.

ونحن الآن شارعون في تفصيل أحوال بني العباس وتبيين ما فعلوه في هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال في الدولة الأموية.

فصل في ولاية العهد والبيعة:

الأصل في انتخاب الخليفة رضا الأمة، فمن ذلك يستمد قوته. هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول اللّه ﷺ فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم. لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ. وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا اللّه سبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب اللّه وسنّة رسول اللّه ﷺ. وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيعة تشبيهاً له بفعل البائع والمشتري، فإنهما كانا يتصافحان بالأيدي عند إجراء عقد البيع.

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم ما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة.

وقد سنّ أبو بكر رضي اللّه عنه طريقة أخرى في انتخاب الخليفة، وهي أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة، وقد وافق الجمهور الإسلامي على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد.

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين معاوية بن أبي سفيان رضي اللّه عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له، وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط. وقد بيّنا في تاريخ الدولة الأموية الأغلاط التي ارتكبها الأمويون في ولاية العهد وأنها كانت من الأسباب التي قضت عليهم.

اتبع بنو العباس في ولاية العهد الأسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر

من واحد من الأبناء والإخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة، ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتي:

ولي السفاح عهده رجلين يلي أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي. فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدي عز عليه أن يلي بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدي، فأظهر عيسى إباء فساموه خطة لا يرضى بها إلا الذليل حتى أظهرت ذات نفسه في شعر قاله وهو:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما ... إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم ... كأس المنية لولا اللّه والرحم

ويقال إن أبا جعفر سقاه شراباً يتلفه فكاد يموت منه، ولكنه أبل من علته، فقال في ذلك شعراء الدولة:

أفلت من شربة الطبيب كما ... أفلت ظبي الصريم من فتره
من قانص ينفذ الفريص إذا ... ركب سهم الحتوف في وتره
دفع عنك المليك صولة ليـ ... ـث يريد الأسد في ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة ... تعرف في سمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقه ... وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى في الدولة واسنهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور.

لما ولي المهدي وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولي المهدي العهد ولده، فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ما رآه المهدي من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادي فهارون الرشيد.

جاء الهادي فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قوياً وقربت منية الهادي، فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه مات مسموماً.

ولي الرشيد ففكر في ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين، لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جليبة من بلاد فارس، وكان ذلك العقد (سنة ١٧٣) وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم

المأمون ليكون ولي العهد بعد الأمين وذلك برأي جعفر بن يحيى البرمكي وسعيه فعقد له (سنة ١٨٣). ثم طلب عبد الملك بن صالح بن علي من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والري إلى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم، فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر:

أقول لغمة في النفس مني ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذي للهول عدته بحزم ... ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فإنك إن بقيت رأيت أمراً ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأي ... لقمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حرباً عواناً ... وسلس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فانٍ ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجري من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليهم ... أغيّا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد اللّه المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد اللّه على محمد وعليهم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليها بها اللّه وملائكته ومن كان في الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام وتقدم إلى الحجبة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، وقرىء الكتابان في داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون.

وقد أكد الأمر في العهدين تأكيداً بلغ الغاية من التشديد، ولكن طبيعة الملك غلابة. ما عتم الأمين أن استخلف حتى حاك في صدره ما حاك في صدر أسلافه وهو تقديم ابنه في ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فأباه طبعاً، لأن من ورائه قوة

تدفع عنه، وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التي كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصراً شنيعاً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله. وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر البلدان الإسلامية ولو كانت لخصومهم من آل على قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين.

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق.

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر باللّه ومحمد المعتز باللّه وإبراهيم المؤيد باللّه، وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأقطع أكبرهم المنتصر إفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكران. وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس، وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين.

حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم في أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الإخوة من ولاية العهد فتمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه، وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته. فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة، وأما المعتز فأبى وقال: إن أردتم القتل فشأنكم. ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الأخوين على نفسه بالخلع القضاة وبني هاشم والقواد ووجوه الناس؛ هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلي العهد. وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد.

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين باللّه بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالي عن أولاد المتوكل خوفاً أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم.

اختل نظام الخلافة ببغداد في ذلك الوقت إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاؤوا وبعد زمن يخلعونه ثم يولون غيره حتى أتى المعتمد باللّه وهو الخامس عشر منهم فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفي ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل في الخلفاء حتى جاءت دولة بني بويه. وفي عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم، والتولية والعزل لبني بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا في عهدهم خلعوا إلا أحمد القادر باللّه فإنه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم.

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكو خان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم (سنة ٦٥٦). وخلاصة القول أن ولاية العهد في النصف الأول من خلافة بني العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد، فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان. أما البيعة فكانت في الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب اللّه وسنّة نبيه ﷺ ثم زيدت عليه أيمان في أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً في أوائل عهد الدولة العباسية. ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا في البيت الحرام. وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية:

أولاهما: طلاق المكره، لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق. من رأي فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لإهانات شديدة أصابته في عهد المنصور ثاني خلفاء العباسيين، وقد تغلب بسبب ذلك رأي فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع.

الثانية: إضافة الطلاق إلى الزوجة التي لم تكن وقت اليمين، فإن البيعة لم تكن لتكتفي بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة، وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين. قال فقهاء العراق: إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف. وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعي محمد بن إدريس، وقد تغلب طبعاً رأي فقهاء العراق.

١ ـ السفاح

هو أبو العباس عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس. وأمه ريطة بنت عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي. ولد (سنة ١٠٤) بالحميمة وهي القرية التي كان أبوه وجده نازلين بها، وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم، ولما أحس إبراهيم باقتراب منيته عهد لأخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة، فسار إليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول (سنة ١٣٢ ـ ٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩)، وكان مروان لا يزال حياً، ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذي الحجة (سنة ١٣٢ ـ ٥ أغسطس ٧٥٠). ومن هذا اليوم يبتدىء التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة (سنة ١٣٦ ـ ٩ يونية سنة ٧٥٤) فتكون خلافته